هيجل

مقتطفات من حياته وفكره

جنبلاط الغرابي

مُلخَّص البحث

إنَّ حياة هيجل البسيطة لا توحي بهذا القدر الهائل من العمق والحفر في تراث العالم وتطورات الوعي الانساني، فمن العادة أن نرى المفكّرين، وهم يجولون بين أرجاء العواصم والقرى هاربين من بطش السلطة، بينما هيجل رحب بالاحتلال الفرنسي لبلده، لا لكونه عميلا أو متخاذلاً، بل لأنّه ينظر إلى العالم بحياديّة، وكذلك نسقه الفلسفي لا يبدي اعتراضاً على عولمة الفكر، مهما بلغ من تشتّت أو اختلاف، فالنتيجة الحتميّة تنتظره في نهاية المطاف، حيث ستنعدم الفوارق بين السيّد والعبد، وسيتحرّر الأخير من قبضته. لذلك لا نعتقد أنَّ هيجل كان يكتب لنيل استحسان القارئ وجرّ ه نحو عالم مليء بالغموض، كما يرى شوبنهاور وغيره، فليس هناك ما يشير إلى ذلك؛ إنَّ كتابة هيجل واسعة بقدر التفكير الذي أخذ على توظيفه في أوسع المجالات الإنسانّية، لذلك نجده حياديّاً تجاه الفكر الاسلامي، وهنا لا يعبّر هيجل عن رأيه الشخصي، بل عن معنى الإسلام في منظومته المعرفيّة، والخارطة التي رسمها لتطوّر الوعي. ومن هنا يمكن فهم هيجل، بعيداً عن التحيّزات القومية، وكذلك سوء الفهم الذي شاع بين قرّائه.

الكلمات المفتاحيّة: هيجل، شوبنهاور، الثورة، الروح، الوعي، الغموض، معنى الإسلام.

هيجل والثورة الفرنسيّة

ولد فيلهلم فريدريش هيجل في مدينة شتوتجارت عام 1770م، وكان والده موظفاً صغيراً في بلاط دوقية فوتمبرج، وقد كانت حياة هيجل لا تتميّز بأشياء استثنائيّة، أي: أنَّ حياته الشخصيّة كانت عادية، إلّا أنَّ العصر الذي عاش فيه كان شديد الأهمّيّة على المستوى السياسي والثقافي والفلسفي،[1] وولد هيجل في الحادي والعشرين، أثناء حروب الثورة الفرنسيّة. وقتها تعرّضت المانيا للغزو من فرنسا. كانت المانيا تتكوّن من 300 دوقة، ومنطقة حرّة، والترابط فيما بينها واهناً إلى حدٍّ كبيرٍ[2].

أطلق هيجل على الثور الفرنسيّة الفجر المجيد، وقد شارك في احتفال مع مجموعة من زملائه الطلاب لغرس شجرة الحريّة كرمز لبذور الآمال في نتائج هذه الثورة. وأثناء غزو فرنسا لألمانيا توقع العديد أنَّ هيجل كان متعاطفاً مع دولته المهزومة، لكن المفارقة اتضحت عبر خطاب كتبه في اليوم التالي من الاحتلال الفرنسي لمدينة «ينا» التي يقيم فيها، حيث يقول: «إنّه لم يكن لنابليون سوى الإعجاب بالامبراطور- روح هذا العالم- رأيته يجول بفرسه أنحاء المدينة ليتفقّد قواته، إنّه لشعور رائع حقّاً أن ترى مثل هذا الفرد يوجد هنا، في مكان محدّدٍ، ممتطياً صهوة جواده، يحكم قبضته على العالم ويهيمن عليه»[3].

(1) هيجل، بيتر سينجر: 13.
(2) المصدر السابق: 13.
(3) المصدر السابق: 14.

ويقال: إنَّ اعجاب هيجل قد استمر طوال حكمه لأوربا. وعند هزيمة نابليون 1814 أشار هيجل إلى الهزيمة بوصفها حادثاً مأساوياً، ومشهداً يتمّ فيه تدمير عبقريّة فائقة بواسطة أشخاص عاديين. أمتد الحكم الفرنسي بين عامي (1806 و 1814)، وقد مثل هذا الحكم اصلاحاً في المانيا، ففي بروسيا تمّ تعيين الليبرالي فون شتاين في وظيفة كبير مستشاري الملك، وعلى الفور قام بإلغاء العبوديّة، وإعادة تنظيم الحكومة، ثُمَّ تبعه فون هاردينبرج الذي وعد بوضع دستور يمثّل شعب بروسيا، إلّا أنّ هزيمة نابليون حطمت هذه الآمال[1].

حياته الدراسيّة

عاش هيجل العصر الذهبي للأدب الألماني رغم إنه يصغر(غوتيه) بعشرين عاماً، ومن شيلر بعشرة أعوام، وقد كان واعياً وذكياً بما يكفي ليدرك مدى قيمة أعمالهم المميّزة. وكان هيجل من الأصدقاء المقرّبين للشاعر هولدرين، ثُمَّ إنّه عاصر رواد الحركة الرومانسيّة الألمانيّة، ومنهم: نوفاليس، وهيرد، وشلايرماخر، والأخوان شليجل. ويبدو أنّ لجوته وشيلر أثراً كبيراً على هيجل، مع أنّه تأثّر ببعض الأفكار الرومانسيّة، إلّا أنّه رفض بعضها.[2] بعد أنْ انهى هيجل دراسته الثانويّة بنجاح غير مسبوق، حصل على منحة دراسيّة في كلّيّة لاهوتيّة شهيرة في مدينة توبنجن، حيث درس الفلسفة وعلم اللاهوت، وهناك أصبح صديقاً للشاعر هولدرين، وطالب أصغر منه

(1) المصدر السابق: 14.

(2) المصدر السابق: 15.

سناً، يتمتّع بذكاء حادٍّ وموهبةٍ كبيرةٍ، يحمل اسم فريدرش شيلينغ، وقتها كان شيلينغ مشهوراً بوصفه فيلسوفاً، وذلك قبل أن ينتشر اسم هيجل ويحوز مكانة في الوسط الثقافي. دامت الصداقة القوية بين الفيلسوفين، ولكنّها انهارت بقصّة غير متوقّعة، إذ اتّهم شيلينغ هيجل بسرقة أفكاره، مستغلاً الصداقة والثقة التي كانت بينهما، والغريب أنَّ آراء هيجل تقترب كثيراً ممّا يراه شيلينغ، ولربما هذا الأمر يصلح أنْ يكون مسوّغاً للاتّهام ومدى مصداقيّته.[1] قبل هيجل وظيفة معلم خاصّ لدى أُسرة غنية في سويسرا، ثُمَّ قبل وظيفة مماثلة في فرانكفورت، وذلك بعد إنهاء دراساته في توبنجن.

كتب هيجل دراساته في الفلسفة لغرض توضيح أفكاره بدل النشر، وكانت تبدو متطرفة بعض الشيء، حيث قارن المسيح بسقراط، وقد أخذته هذه المقارنة نحو ترجيح سقراط أخلاقيّاً على المسيح، أي: أنَّ المسيح أقلّ مرتبة من حيث كونه معلماً في الأخلاق أمام سقراط،[2] ولم تستمر هذه المواقف المتطرّفة لهيجل على هذا المنوال، حيث انحسرت بعض الشيء، إلّا أنَّ موقفه من الارثوذكسيّة كان متصلّباً، حيث يرى أنّها عائق أمام استعادة الإنسان لحالة التناغم، إذ تجعل الإنسان تحت هيمنة السلطة الخارجيّة مقابل التخلّي عن قواه الفكريّة، وقد استمرت هذه النظرة الهيجليّة حتّى عدّ نفسه مسيحيّاً لوثريّاً، وأخذ يمارس في الكنيسة طقوسها الدينيّة بانتظام[3].

(1) المصدر السابق: 19.

(2) المصدر السابق: 19.

(3) المصدر السابق:20.

نهاية الصداقة

قبل أنْ تسوء العلاقة بين هيجل وشيلينغ قام الأثنان بتأسيس مجلة «كريتكال جورنال اوف فيلوسوفي»، وكان ذاك أثناء وجوده في جامعة «ينا». وقد نشر هيجل في زمن تواجده في الجامعة كتاباً حول الاختلافات بين فلسفة فيخته وشيلينغ، وكان هيجل ينتصر في بحثه لصالح شيلنغ. بعد ذلك ترك شيلنغ جامعة «ينا»، وبدأ بتدوين أوّل أعماله الرئيسة، «فينومينولجيا الروح»، ولأنَّ ميراث هيجل الضئيل من أبيه قد بدأ ينفد، أصبح في حاجة ملحّة إلى المال، فقبل عقداً لناشر قدّم له دفعة مسبقة من المستحقّات، ولكن العقد تضمن شروطاً جزائيّة صارمة في حال التأخير عن موعد تسليم النسخة من الكتاب الذي كان في 13 اكتوبر 1806، ومن سوء الحظ أنَّ هذا اليوم هو ذاته الذي احتل فيه الفرنسيّون مدينة «ينا» بعد انتصارهم على قوات بروسيا، ولذا كان على هيجل أنْ يُسرع في إنهاء أجزاء كتابه، ليتمكن من تسليمه في الموعد المحدّد. وكانت مخاطرة منه أن يفعل ذلك، كونه لا يملك سوى نسخة واحدة من الكتاب، وقد حالفه الحظ إذ تمّ تسليم الكتاب دون مشاكل، وتمّت طباعته، وقد نشر سنة 1807، بعد مدّة وجيزة من ظهور الكتاب.

انزعج شيلينغ بشدّة، إذ رأى موقفا نقديّاً ضدّه في المقدّمة، وهذا لم يكن متوقّعاً من صديقه أن يمارس هجوماً على ما بدت أنّها أفكاره، مع أنّه لم يشر إلى اسمه. أثناء ذلك حاول هيجل توضيح موقفه، إذ أرسل إليه خطاباً يخبره أنَّ ما جاء في المقدّمة لا يعنيه، بل كان موجّهاً إلى اتباعه الذين فهموه بطريقة خاطئة، إلّا

أنَّ شيلينغ لم يتقبل ذلك، فما من شيء يوحي بما ذكره من تبرير، ولم يكن هناك توضيح لهذا الأمر، وهكذا انتهت الصداقة حتّى توفي هيجل[1].

ما بعد الاحتلال الفرنسي

اضطر هيجل للعمل محرّراً صحفيّاً لمّدة عام بعدما أغلقت جامعة «ينا» أبوابها، ثُمَّ عمل مديراً في ثانوية مدينة نورنبرج، واستمر عمله لتسع سنوات، وهنا استقرّت حياة هيجل الأُسريّة، حيث أصبح أباً لابن غير شرعي، من سيّدةٍ تمتلك المكان الذي يعيش فيه. وفي العام 1811 تزوج هيجل، وهو في سنّ الحادية والأربعين من سيدة من أسرة عريقة في نورنبرج، وكانت تصغره بكثير، مع ذلك فإنّ زواجهما كان سعيداً، فقد رزقا بولدين، وبعد وفاة زوجته الأوّلى قامت الزوجة الثانية باحتضان ابنه غير الشرعي، وفي هذه السنوات نشر هيجل كتابه المطوّل علم المنطق، وقد انتشرت أفكاره وحظيت بتقدير واسع، حتّى تمّ تقليده وظيفة استاذ في جامعة هايدربرج، ثُمّ ازدادت شهرة هيجل وسمعته بين الأوساط الثقافيّة والسياسّية، حتّى طلب منه وزير التعليم البروسي أن يكون استاذاً في الفلسفة في جامعة برلين. قبل هيجل العرض وبقي في التدريس حتّى وفاته عام 1831، وهذه المرحلة كانت ذروة إنتاج هيجل الفكري، حيث كتب فلسفة الحقّ، ومحاضرات في فلسفة التاريخ، وفلسفة الدين، وعلم الجمال، وتاريخ الفلسفة[2].

(1) المصدر السابق: 21.

(2) المصدر السابق: 22.

أسلوبه في الكتابة

ليس خافياً أنَّ هيجل يمتلك حسّاً معرفيّاً يسلك في ظاهره نحو الغموض، بدل الايضاح والاقتصار على مواضع بسيطة وسلسلة. وفي هذا الجانب قد يكون الفهم في مواجهة محتدمة مع النصّ، والتمثيلات التي تقدّم من هيجل في محاضراته أو مؤلّفاته، وقد يتساءل بعضهم عن جدوى اللغة الجافة، وسريانها بين محطات تخلو من تقديم أرضية كفيلة بأن تضمن الاستيعاب، إلّا أنَّ ذلك لا يعطي مسّوغاً لاتهام هيجل بتعمد الغموض، باستثناء ما أشار اليه الكسندر كوجيف في معظم نصوصه، ولعلّها كانت رؤية وتحليل من قبله، أو حقيقة تتعلّق بالتخفي من سلطةٍ دينيّةٍ، سيّما أنَّ ما يبدو في معظم كتابات هيجل عدم اقتناعه بالديانة المسيحيّة، مع ذلك تبقى كلمات هيجل صلبة، وعباراته أقرب إلى الأُحجيّة في العديد من المواضع، وتحديداً «فينومينولوجيا الروح» هذا الكتاب الذي أرفقه هيجل بمقدّمة، وفي الوقت ذاته دافع عنها من حيث إنَّ الأدبيّات السائدة في الطرح الفلسفي لا تتقبّل المقدّمات.

يقول أحد طلبة هيجل: «في بادئ الأمر عجزت عن استيعاب طريقته في القاء المحاضرة، أو حتى نمط تفكيره، كان يجلس هناك منهكا وعابسا ومطاطئ الرأس، كأنّما انطوى على نفسه، وخلال حديثه أخذ يقلّب الصفحات، ويبحث في دفاتر مفكراته يميناً ويساراً، ومن أعلى لأسفل، وكان تنحنحه وسعاله المتواصلين يقاطعان أيّ انسيابٍ للحديث، فكانت كلّ جملة قائمة بذاتها، وتخرج بمشقة مقطعة إلى أجزاء ومشوشة، وكانت البلاغة المتدفقة منه بسلاسة

تقتضي أنْ يكون المتحدّث قد ألم بالموضوع الماماً شاملاً، ووعاه عن ظهر قلب، لكن على هذا الرجل اثار أقوى الأفكار من قاع أكثر الأشياء غموضاً. إنَّ تقديم تصوير أكثر حيوية لهذه الصعاب وهذه المشقّة ممّا تمّ تقديمه من خلال طريقة عرضه، كان سيصبح مستحيلا»[1].

بعد رحيل هيجل قام تلامذته بجمع دفاتر محاضراته ونشرها مصحوبة بملاحظاتهم الخاصّة، وكانت هذه الطريقة هي التي وصلت بها أعمال هيجل. وقد رحل وعمره يناهز الحادية والستين. كتب أحد تلامذته معلّقا «يا له من فراغ مروّع، لقد كان حجر الزاوية في جامعتنا»[2].

غموض أم عمق؟

حين نقرأ كتاب «فينومينولوجيا الروح» نصطدم منذ البدء بسلسلة من الحديث الغامض، والمثقل بالمصطلحات، وقبل ذلك سنواجه المعنى الذي استغله هيجل في بناء فكرته الفلسفيّة، والمقترنة بكلمة الروح، وهنا ينبغي ملاحظة: أنَّ هذه الكلمة لا يمكن ترجمتها لأيّة لغة في العالم، إنّها كلمة تخصّ اللغة الألمانيّة وحدها. ومع ذلك وبحسب القراءة المتأنيّة، فإنّنا سنكتشف عدم وجود صلة بينها وبين معنى الروح المتداول، فيا ترى أيّة روح يقصد بها هيجل؟ وحقيقة الأمر أنَّ العديد من المهتمين بالفكر الهيجلي سيّما الذين لا يتحدّثون الالمانيّة يتهجّون نحو الدلالة المشابهة في لغاتهم، أو

(1) هيجل ، بيتر سينجر: 23.
(2) المصدر السابق: 24.

ضمن ثقافتهم، حتّى أنَّ بعضهم قد يذهب إلى أنَّ هيجل أراد بهذه الكلمة الروح القدس. رغم ذلك أعتقد أنَّ من يقرأ هذا الكتاب بتعمّق ودراية مع خلفيّة فلسفيّة، سيذهب إلى أنَّ ما عناه هيجل يرتبط بالبعد الإنساني في حقيقةٍ ماديّةٍ تتعلق بطبيعة تطوّر وعيه عبر التاريخ، ولأنَّ حركة التاريخ لها غاية بالنسبة لهيجل، فإنَّ اضطراب معنى الروح سيظهر مجدّداً، وكذلك انزلاقه من قبضة الفهم.

وهنا نتساءل كيف يمكن أنْ نفهم هيجل؟ يقول شوبنهاور واصفا نصوصه: «إنّها على هذا النحو تضيء بالضدّ من أولئك السفسطيين الثلاثة سيئي السمعة في فترة ما بعد كانط... ثُمَّ عبر العمل بهذه الروح والنظر باستمرار، إبّان ذلك إلى ما هو زائف ورديء، يدخل في القبول العام، وفي الحقّ دخول الدجل... من المحال أنَّ عصراً مجد عشرين عاماً هيغل، هذا الكاليبان العقلي كأعظم الفلاسفة بصخب، حتّى أنَّ الصدى سمع عبر أوربا[1].

إنَّ الثلاثة الذين يقصدهم شوبنهاور: «هيجل، وشيلينغ، وفيخته»، ومن الواضح أنَّ سخطه كان مسلّطاً على «هيجل» أكثر من غيره، حيث يصفه بالكاليبان، ذلك الشبح الأُسطوري الذي ظهر في إحدى مسرحيات شكسبير. وسبب هذه التسمية، الغموض وعدم الوضوح الذي يهيمن على عدّة من أعمال هيجل، سيّما فينومينولجيا الروح، وهو الأشهر من بين مؤلّفاته. ومن هنا، فهو يرى أنّ هيجل يتلاعب بعقول القراء والباحثين عبر الزيف والدجل، هذه الكلمات الكبرى التي تظهر بين دفات الكتب ليست سوى فراغ عرضه هيجل على

(1) العالم كمتصور، شوبنهاور: 22.

شكل أحجيات.

لقد كان هيجل بنظر شوبنهاور ليس سوى متحدّث من غير فائدة، ومتلاعب بالكلمات في أقصى قوّته، وأقصى حدوده المعرفيّة. أمّا الشهرة التي حصدها فغير جدير بها. ولا أعتقد أنّ شوبنهاور وحده كان يذهب هذا المذهب في فهم هيجل، فهناك من رأى هيجل مجرّد ساحر يجيد صناعة الكلمات الملغزة، والجمل الطويلة غير الهادفة، إلّا أنّ شوبنهاور بدا صريحاً ولم يبال بنتائج حديثه عنه، حتى وصل الأمر إلى الهجوم على الكتاب الهيجيليين حيث يقول: «إنَّ رؤوسهم فقدت نظامها، هم لا يحتاجون أيّ نقد للعقل أو فلسفة، بل يحتاجون الى علاج عقلي»[1].

إذن، لم يسلم مريدو هيجل من لسان شوبنهاور السليط ومن نقده القاسي، بعدما كان يوجهه لأستاذهم، وكلّ ذلك يقع في مسألة عدم إدراك النصوص.

وبتعبير أوضح: أنَّ شوبنهاور لم يفهم هيجل، ولم يستطع مجاراته معرفيّاً، وربما من سوء حظ شوبنهاور معاصرته لهيجل، حيث لم ينل أية مكانة يطمح إليها، كما حدث مع غيره، ولم يجد تابعين بالقدر المناسب لإضفاء شرعيّة ما على أفكاره. لذلك لا نستبعد أنْ يكون موقف شوبنهاور مبنياً على الحسد.

يقول شيلينغ: «إذا أردت أن تفهم فيلسوفاً، فعليك النظر ومتابعة بداياته قبل أنْ ينتقل إلى مرحلة من المراحل النهائيّة من

(1) المصدر السابق: 27.

استنتاجاته»[1].

ويقول: «إنّه اعتراض فقير ضدّ الفيلسوف، حينما تقول: إنه غير مفهوم» [2].

تبدو قضية الغموض واردة في إطار البحث والتداول منذ ذلك الوقت، وليست موقفاً تمّ تحديده من شخص ما، وهذا يعني: أنَّ ما استوقف شوبنهاور قد استوقف آخرين، كلّ بطريقة ما. ومن هنا نجد كيركغارد يعاني المشكلة نفسها، حينما كان يحضر دروس شيلينغ ومحاضراته، فقد وصفه بمتحدّث يقدم الألغاز والأحجيات التي لا يمكن فهمها، وذلك بعدما وصف نفسه بأنّه كان هيجليّاً أحمق[3].

ويبدو أنَّ كلام شيلينغ كان دقيقا في وصفه للذين يعترضون على الغموض، وعدم القدرة على الاستجابة أو التفاعل مع المواضيع المطروحة من جانب المفكّر، ولذلك شدد على متابعة التنقلات والتطوّرات التي تحصل عند صاحب أيّ مشروع معرفيٍّ، حيث ينبغي اللقاء به في كلّ مرحلة من مراحل تحوّلاته، لأنَّ كلَّ ما هو منفتح سيتعرّض لبحث أكثر عمقاً وتوغّلاً.

وهذا هو السبب الذي يجعل بعضهم لا يفهم فرويد أو هيدغر وغيرهم. إنَّ تعمد الغموض لا يستقيم مع النصّ، لأنّه سرعان ما يظهر بنحو ما، وسيفتضح شأنه، وسبب ذلك: أنَّ لا نتيجة متوخاة،

(1) Essence of human freedom , martin Heidegger 9.

(2) المصدر السابق: 9.

(3) The concept of irony , soren kierkegaard.

سواء كانت قادمة مّما تسطره الأقلام، أم تلقيه الأفواه على الجمهور.

والحصيلة بحسب النتائج هي التي تدحض الفكرة أو تعززها، ولهذا فإنَّ هيجل لم يكن يتعمد الغموض، ولو كان الأمر كذلك، لما استطاع ماركس أخذها، وتحويلها لمنظومة شموليّة، ولما استطاع كوجيف تدريسها لسنوات طويلة. إنَّ ما كان يطرحه هيجل ينطوي على عمقٍ معرفيٍّ وتوسّع في المجال الذي حفر فيه. وفيما لو أردنا فهمه فعلينا قراءة جميع كتاباته، فضلاً عن الإلمام التامّ بالفلسفة، إلّا أنَّ هذا السبيل سيكون صعباً بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن معلومة بطرائق جاهزة. وأود أنْ اضيف: إنَّ اتهام هيجل لم ينتهِ عند هذا الحدّ، بل أخذ يتعاظم في مجالات مختلفة، حتّى وصل إلى الاعتقاد بأنّه كان بالضدّ من الديمقراطيّة.

اتجاه فكر هيجل

لقد اعتقد «هيجل» أنه جزءٌ من العالم الذي قام بتدوينه في «فينومينولجيا الروح»، ومن ثُمَّ فهو لا يخرج عن معنى الروح الذي استغله في جميع خطاباته الفلسفيّة، الروح الذي لا نجد له تفسيراً سوى (الإنسان في وعيه) أو الواقع الإنساني في وحدته، وفي الجماعة، هذا ما كان يعنيه «هيجل» بكلمة «الروح»، ولأن هذه «الروح» خاضعة لما هو داخلي فيها، وفي الوقت نفسه تتفاعل مع أفق الخارج، فإنّها في تطوّر مستمر، حتّى تصل إلى التصالح والتكامل ما بين الداخل وما بين الخارج. تلك هي الرغبة الإنسانيّة ـ إذا جاز التعبير ـ في القاموس الهيجلي، ومن دون رغبة لا توجد حياة.

هـذا هـو الأسـاس الـذي ينطلـق منـه «هيجـل»، فحينمـا تظهـر الرغبـة في أبسـط اشـكالها، الجـوع على سـبيل المثال، ورغبة الاشـباع، فيمكـن القـول: إنَّ الانسـان هنـاك يـدرك ذاته، ومـن ثُمَّ يتعـرّف بوعي دون تأمّـل وبحـث، لأن التأمّـل بالنسـبة لهيجـل ليـس الرغبـة ذاتها، بل إنّهـا تـؤدّي دور اسـترجاع الـذات، وهـذا يعنـي: أنَّ مـا أقـوم به لأجل اشـباع الرغبـة يـؤدّي إلـى التأمّـل فـي نفسـي ومعرفتهـا، ومن هنـا فإنَّ التأمّـل ليـس فـي الـذات، بل هـو تابع لهـا، وقد عبـر عن نفسـه بصيغة «مـا» فـي تجربـة الرغبـة، وهذه الرغبـة عليهـا أنْ تبطل الجوع وتسـلبه، وهـذا المثـال يوضـح لنـا قضيّـة يثيرهـا «هيجـل» فـي مسـألة السـلب، حيـث إنَّ الإنسـان لا يمكـن أنْ يكـون مطابقـاً لذاتـه، ومكتفيـاً بها، بل عليـه أنْ يعيـش الرغبـة حتّى ينخـرط دائماً فـي الوجود، ويكـون هناك فـي الوجـود الـذي يصيـر تاريخـاً، وهـذا السـبب كاف فـي أنْ تكـون هنـاك فلسـفة. إنَّ محـاولات «هيجـل» لفهـم الإنسـان غيـر ناجمـة عن ميـل لإصـلاح منظومةٍ فكريّةٍ، أو دينيّة، كما فعل سـبينوزا وروسـو، وإنْ كان الأخيـر أكثـر عمقاً وتوسّـعاً مـن الأوّل، بل إنّـه أراد أنْ يضع البداية التـي تتمكـن مـن تقديم فحـوى كاملة للتاريـخ ومراحله، التـي هي في حـدّ ذاتهـا معرفيـة، وذلـك ليس طبقـاً لمفهـوم الزمان، ولكـن بناء على الوعـي بالـذات والوعـي بالآخـر. ومـن هنـا نـرى أنَّ نظريـة «هيجـل» اشـتملت علـى قـراءة الفـن، والديـن، والثقافـة، والأدب، والاجتمـاع الطبقـي، وكلّ مـا يمكـن أنْ يصلـح للبسـط تحـت يـد الإنسـان، وإثـر ذلـك ظهـرت الماركسـيّة التـي هي ليسـت سـوى هيجليّة في مسـتوى مختلـف مـن التحـوّل، أو الانقـلاب بتعبيـر ماركـس، مـع الإبقـاء على

عناصرها الأوّليّة، ومنها صراع الطبقات.

موقف هيجل من اليهوديّة والإسلام

يقول لوك فيري «جاءت لدى هيجل هذه الخاتمة الصادمة لنا على وجه الخصوص، وغير العادلة بداهة، ولكنّها تندرج في منطق هذا التأويل لليهوديّة، بما هي فلسفة في القانون، ونقيض الطبيعة أكثر منها فلسفة في الحبّ- إنَّ دين موسى ولد من الشقاء، وللشقاء، لأنَّ في الشقاء القطيعة، وفي السعادة زالت هذه القطيعة، وحلت مملكة الحبّ والوحدة» [1]. يتحدّث لوك فيري بناء على ميول عاطفيّة، فهو منزعج من كلمات هيجل وكأنّها عثرات، كونه قد مسّ اليهوديّة بانتقاص لم يحلُ للكاتب أن يراه في متون هيجل، وكان عليه أن يتريّث، قبل أن يعرض صدمته جراء هذا الموقف، إنّه ليس موقفاً، بل هو يقع ضمن خريطة هيجل المتعلّقة بالروح، حيث إنَّ هيجل لا ينطلق من طبيعة المشاعر الشخصيّة وأبعادها، بل من خطاب الروح الذي فيه تظهر وتستجيب لظروفها الموضوعيّة، لذلك أرى أنَّ هيجل كان حياديّاً، وليس ميّالاً إلى قارة دون أخرى، أو قوميّة عن سائر القوميّات، وكل ما يظهر في خطابه يتحدّث عن نفسه بنفسه، من غير خيالات، أو تقصّيات سطحيّة، لأنّنا نجده في مواضع أخرى يطعن بالمسيحيّة، وذلك يعود لظهورها بحسب التعاقب الزمني للمراحل. وما حمل لوك فيري على هذه القراءة البسيطة ما بدا له من مدح للمسيحيّة في ظاهر النصّ، ومن ثُمَّ

(1) اجمل قصة في تاريخ الفلسفة، لوك فيري: 127.

وصف المسيحيّة بمملكة الحبّ. أما موقفه من الإسلام فبيانه هذا النصّ: «إنَّ العربي بوجهٍ خاصٍّ، هذا العربي الذي كان في البداية مجرّد نقطة، هو الذي تضخم وتوسّع بألق ولألاء في المدى المترامي لصحرائه وسمائه، حتّى اندمج بالعالم الدنيوي، ولكن دون أنْ يتنازل عن حريّته الداخليّة، والإسلام بوجهٍ خاصٍّ، هو الذي مهد الأرض لذلك، بإلغائه العبادة الوثنيّة للأشياء المتناهيّة والخياليّة، وكذلك بإطلاقه للنفس الحرية الذاتيّة التي تسمح بتصالح القلب والروح خارج نطاق أيّ هيئة موضوعيّة لله، والتي تتيح للإنسان أن يعيش كمتسوّل في العبادة النظريّة الخالصة لمواضيعه، ولكن في الوقت نفسه في الحبّ والفرح والهناء»[1].

في هذا النصّ تحديداً، وبصرف النظر عن حياديّة هيجل البارزة في تصوره عن الأديان، فإنَّ أهمّ ما يمكن الوقوف عليه يتمثّل في كون الدين الإسلامي جاء مخلصاً ومحرراً للإنسان، هذا ما يراه هيجل بعدما كان العرب مجرّد نقطة كما يصفهم، والقصد من ذلك محدوديّة الوجود، وضيق حرية الوعي وتطوّره، وبالجهة المقابلة نفيهم للخرافات، وعبادة الأوثان التي كانت تمضي مع حياتهم وكأنهم أدوات تابعين لها، فالعربي لم يتمكن من الوصول إلى حقيقة ذاته ووعيه بها، مع وجود الأصنام التي تحجم من تفكيره، وتؤطره في بوتقة جافة وجامدة لا تقبل التغيير، هذا السلوك في رأي هيجل لا يقود إلى التحرّر، ومن هنا كان الإسلام ـ في رأي هيجل ـ المنقذ الذي جعل الفرد ينفتح على العالم ويدرك

(1) الفن الرومانسي، هيجل: 58.

قـواه ومـدى صلتهـا بـه. هـذا العالـم لا يمكـن تجسـيده عبر آلهـة، بل ديـن أوسـع من ذلـك، وهو الـذي يجمع الفـرد مع الآخريـن في مجال يضمـن لكليهمـا حـقّ فـي الحيـاة، وميـزان يعـادل حريّتهم مـن حيث إنّهـم يتّجهـون فـي عبادتهم لإله واحـد لا يحمل هيأة معيّنـة، ويترجّون منـه الرحمـة. وهـذا هو المعنـى الدقيق لكلمـة (كمتسـوّل)، أي: أنّه في عبادتـه يجـد العلاقـة مـع خالقـه واردة في كلّ زمـان ومكان، وليسـت مقتصـرة علـى نـوع معيـن مـن التطلـع أو الطلـب. ذلـك أنَّ للأصنـام حدودهـا، والفـرد العربـي قـد تجاوزهـا بعدمـا آمـن بالمطلق.

الخاتمة

لا يمكن قراءة هيجل وفهمه من غير النظر إلى بداياته، وإلى التطوّرات التي لحقت بها، فضلاً عن ذلك، لا ينبغي الحكم إلى كتب هيجل بالطريقة نفسها التي نتعامل بها مع القصص والأساطير، ليس لأنّنا في محلّ البحث في المجال المعرفي، بل لأنّنا أمام مفكّر لديه مشروع مختلف، قد جاهد في بنائه، ليخضع تحته جميع تطوّرات التاريخ وتقلباته. إنّ التاريخ لدى هيجل لا يعني الزمن في حدّ ذاته، ولا تغيّر حال الإنسان من واقع إلى آخر، إنّ التاريخ يعني: تغيير الوعي والكشف عن نفسه عبر معرفة الموجود في هذا العالم؛ لكنّ هذا الموجود هو الإنسان ذاته، وهو الذي بوعيه يكشف عن الموجودات الأخرى، وهذا الكشف لا يتحقّق إلّا بواسطة الديالكتيك، وأبسط مثال على ذلك؛ مفهوم السيّد والعبد، فلا يوجد سيّد بدون عبد، والعكس صحيح أيضاً. إنَّ السيّد الذي كان مستعداً للموت وضع تحت سلطانه العبد الجبان الذي فضل الخدمة مقابل عدم موته. من هنا يقوم الديالكتيك الهيجلي، وعلى هذا الأساس يبقى الاثنان في مقابلة أحدهما الاخر، وكلّ يعطي صفة الأخر، مع فارق أنّ العبد هو الذي يبني وينتج، أمّا السيد فهو مجرد نداء للسلطة والهيمنة.

المصادر

– أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، لوك فيري، ترجمة محمود بن جماعة، التنوير للطباعة والنشر. ط أولى 2015.

– العالم كمتصور، آرتور شوبنهاور، ترجمة نصير فليح، منشورات المتوسط، ط أولى 2016

– الفن الرومانسي، هيجل، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة.

– هيجل، بيتر سينجر، اعداد محمد الشربيني.

– Essence of freedom, martin Heidegger.

– The concept of irony, soren kierkegaard.